# كوكب اللامعقول

# كوكب اللامعقول

تأليف: ماريا دعدوش

جبل عمّان
Jabal Amman
للنشر
Publishers

**كوكب اللامعقول**
الطبعة العربيَّة الأولى ٢٠٢٦م
حقوق الطبع محفوظة

تأليف: ماريا محمد دعدوش
رسم الغلاف: هاني محفوظ

**جبل عمَّان ناشرون**
ص.ب. ٣٠٦٢، عمَّان ١١١٨١، الأردن
هاتف: ٥٥٥٩ ٤٦٤ ٦ ٩٦٢+
Email: info@JAPublishers.com
www.JAPublishers.com

رقم الإيداع: (٢٠٢٥/٩/٥٥٤١)
ISBN 978-9923-12-676-9

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقلها، أو استنساخه بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

**The Planet of the Absurd**

Copyright © **Jabal Amman Publishers, 2026**.
All Rights reserved. No portion of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means – electronic, mechanical, photocopy, recording or any other – except for brief quotations in printed reviews, without prior permission of the publisher.

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
المملكة الأردنية الهاشمية
٢٠٢٥/٩/٥٥٤١
**عنوان الكتاب:** كوكب اللامعقول
**تأليف:** دعدوش، ماريا.
**بيانات النشر:** عمان: جبل عمَّان ناشرون، ٢٠٢٥
**الوصف المادي:** ١٥٢ صفحة.
**رقم التصنيف:** ٨١٣,٢٨٣٩
**الواصفات:** / القصص العربية/ / الشباب والناشئة/ / الأدب العربي/ / العصر الحديث/
**الطبعة:** الطبعة الأولى
يتحمَّل المؤلِّف كامل المسؤوليَّة القانونيَّة عن محتوى مصنفه ولا يعبِّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكوميَّة أخرى.
طُبع في المطابع المركزيَّة (Central Press)

# المحتويات


١ لوس أنجلس، خريف ٢٠١٨م ..... ٧

٢ الشام، آخِر شتاء ٢٠١٦م ..... ١١

٣ ننصحُك بتغيير كلمةِ المرور! ..... ٢١

٤ شراب السُّعال ..... ٢٩

٥ ونقاطٌ كثيرة ..... ٣٧

٦ طنفسة وبانجان ..... ٤٣

٧ فلْنقتَسِمِ النقود ..... ٤٩

٨ قناع "سكريم" ..... ٥٥

٩ المول ..... ٥٩

١٠ أبوس رِجْلِك..... ٦٧
١١ ريان..... ٧١
١٢ لا أحَدَ يُحبُّ نايا ..... ٧٧
١٣ "Hacked! Hacked!"..... ٨٥
١٤ الحبوب..... ٩١
١٥ "SuzanRyan" ..... ٩٧
١٦ قذيفةُ هاون..... ١٠٣
١٧ "فلاشباك"...وفليفلة حارَّة ..... ١٠٧
١٨ الفيديو ..... ١١٣
١٩ كوكب اللَّامعقول ..... ١٢١
٢٠ شجرُ أرْزٍ وبحر..... ١٢٧
٢١ إنْ لم نساعدْ أنفسنا، فلن يساعدَنا أحَد ..... ١٤١
٢٢ لوس أنجلس، في خريف ٢٠١٨م..... ١٥٣

# ١

# لوس أنجلس، خريف ٢٠١٨م

جلَسْتُ في الصفِّ الأماميِّ في "قاعة رويس" (Royce Hall) في جامعة لوس أنجلس، أترقَّبُ لحظة إعلان السيِّد آدم إيفرسز، مدير برنامج الكتابة الإبداعيَّة، للجملة المنتظَرة: "نايا الأبرش، الفائزة بجائزة جيمس جونسون للكتابة الإبداعيَّة". كان واقفًا على منصَّة تتلألأ بالأضواء الزُّرق التي عُرِفَت بها جامعات كاليفورنيا، وعلى امتدادِ الجدار خلفَه، أضاءَت الكلمات الآتية:

Naya AlAbrash

Recipient of the James Johnson Award in Creative Writing

تراقصَتِ الأوراق في يدي لشدَّة توتُّري. كنتُ قد طبعتُ الكلمات بمقاس ٢٠ حتَّى لا تتداخل الحروف أمام عينيَّ في أثناء القراءة. شعرتُ بجفافٍ شديدٍ في حَلْقي، فسحَبْتُ مَطَرةَ الماء من حقيبة الظهر

التي أسندتُها إلى حذائي الرياضيّ، ولم أكَدْ أرتوي منها حتَّى سمعتُ العبارة الترحيبيَّة:

"Let's give a warm welcome to Naya Al-Abrash!"

وقفتُ ونفضتُ التجعُّدات التي تخيَّلتُ وجودَها على بنطالي الجينز الكُحليّ، ثمَّ على كتف قميصيَ الأبيَض، واتَّجهتُ إلى المنصَّة وصعدْتُ دَرَجاتِها. شعرْتُ بألمٍ مفاجئٍ في معدتي، وكأنَّ أسنان سمكة قرش قد قضَمَتْ منها قطعة.

سمعْتُ صَوت رَيان العزيز من بين الجمهور يقول:

"You've got this, Naya!"

فابتسَمْتُ!

تابعتُ خطواتي، فحيَّيتُ أساتذتي الجالسين في الصفِّ الخلفيِّ من المنصَّة، المغمور بالعتمة. وفي الصفوفِ الأماميَّة، لمحْتُ وجوهَ زملاء الدراسة، وبعض الإداريِّين، وأهالي الطلبة، لكنْ لم يكنْ بينَهم أحَدٌ من عائلتي. استنتجتُ من هَديرِ التصفيق القويِّ أنَّ عددَ الحضور أكبر ممَّا تخيَّلت.

بدأتُ كلامي، وأنا أحاول أن أُضيفَ إليه لَمْسَةً من اللَّهجةِ الأميركيَّة: "إحم إحم...أشكركم جميعًا على حضوركم. لقد طلَب إليَّ السيِّد إيفرسز

أن أقرأ، في مدَّةٍ لا تتجاوز خمسًا وأربعين دقيقة، اقتباساتٍ من روايتي «كوكب اللَّامعقول»، التي فازت بجائزةِ اليوم، وهي تتضمَّن «مذكِّرات» (Memoir) عنِ الأعوام الأخيرة من حياتي في سوريا. لذلك لن أُضيِّعَ وقتكم بالمقدِّمات".

فَرِحتُ لأنَّ صَوتي لم يرتَجِفْ. لقد استفَدْتُ كثيرًا من التمرُّن مِرارًا أمامَ المرآة.

أكمَلْتُ كَلامي: "ينبغي أن أُوضِّحَ أنَّ قِصَّتي الحقيقيَّة بدأت قبل أن تبدأ فصول روايتي. لقد بدأتْ قصَّتي في حلب، يوم فقدتُ أُمِّي وأبي تحت أنقاضِ بيتِ الطفولة، ذاك اليوم الذي سَحَبني فيه رجلٌ يضعُ خوذةً بيضاء، وقد غطَّى الغبار الأبيض حاجبيه، وهو يقول لي: «حرِّكي عينَيْكِ إذا كنتِ تسمعينني»".

كان ذلك في أوَّلِ خريف ٢٠١٥م، لكنَّني اخترتُ أن تبدأ روايتي بعد ذلك بشهورٍ قليلة، في شتاء ٢٠١٦م، في بيت خالتي نورا وعمِّي مصباح، في حيِّ المالكي في الشام، حيث يبدأ أوَّل فصولِ كتابي.

أسمَيتُ ذلك الفصلَ الأوَّل: "الشام، آخِر شتاء ٢٠١٦م".

# ٢

# الشام، آخِر شتاء ٢٠١٦م

أَغْلقتُ مِصراعَ النافذة كي أمنَعَ أصواتَ القصفِ من التسلُّلِ إلى غرفتنا في بيت خالتي وعمِّي. كان بيتهما في شقَّةٍ أرضيَّةٍ ضمن بناءٍ أنيقٍ صغير، وقد أطلَّتِ النافذةُ على فُسْحةٍ كانوا يُسمُّونها "حديقة"، قَبْل أن تذبلَ نباتاتها بفعلِ تقنين المياه الذي فرضَته أحوال الحرب في الشام. وكالعادة، كانَت أصواتُ القصف الآتية من محيطِ دمشق تُدَوِّي في الأرجاء- ذاك الدَّوِيُّ الممزوجُ بطنينِ الطائرات التي تُحلِّق على ارتفاعٍ منخفِض، وأصواتِ الانفجارات القويَّة. مع أنَّ مركَزَ دمشق، حيث تقع شقَّة خالتي وعمِّي، ما زال يُعدُّ آمِنًا نوعًا ما، على الرغم من مرورِ سبع سنواتٍ على حربٍ طاحنةٍ عصفَت بكلِّ أنحاء سوريا. أتمنَّى لو بقيَتْ مدينتي حلب آمِنة أيضًا.

فجأة، عَلا صَوتُ انفجارٍ قويٍّ في مكانٍ بعيد، فأحسَستُ بأنَّ قلبي قفزَ من مكانه. لقد تكيَّف الجميع مع أصواتِ تلك الانفجارات حتَّى صارَت مثل موسيقا خلفيَّةٍ حزينةٍ لتَفاصيلِ حياتنا اليوميَّة. تكيَّف الكلُّ إلَّا أنا. سحبتُ نفسًا عميقًا وطمأنتُ نفسي: "هذه الانفجارات بعيدة...بعيدة جدًّا، سأتجاهلها! لن تقتلَ أحدًا منَّا اليوم".

دَخلَتْ شيرين، ابنة خالتي وابنةِ عمِّي، إلى الغرفة وهي ترمقني بنظرةِ مُتكلِّفةٍ شزرًا.

سألتها: "ماذا بكِ؟"

أجابتني: "علامتكِ في الاختبار التجريبيِّ «SAT» هي ٢٣٥٠ يا ظالِمة، وتسألينني ماذا بكِ؟! لقد تفوَّقتِ عليَّ بخمس مئة علامة وتسألينني ماذا بك؟ لو كنتِ تُحبِّينني حقًّا، لأحرزتِ علامةً أقرَبَ إلى علامتي، كي توفِّري عليَّ ذلك اللَّوم من خالتك وعمِّك؛ اللَّذَيْن هما والدتي ووالدي".

عندما كنتُ أنا وشيرين في الصفِّ الحادي عشر، أراد عمِّي وخالتي إرسالنا إلى أميركا، عند خالنا وجيه، لنُكملَ دراستنا في العام المقبِل في جامعة لوس أنجلس. كان ذلك حُلْمهما. ولكي نُحقِّق هذا الحُلْم، التحَقْنا منذ الطفولة بمدارسَ ذات منهاجٍ إنكليزيّ، أنا في حلب وشيرين في دمشق، وصِرْنا نُتقِنُ الإنكليزيَّة جيِّدًا. لقد راودَ حُلْم الدراسة في جامعة لوس أنجلس (UCLA)

والدَينا حتَّى قَبْل أنْ نولَد. كان ذلك قَبْل سبع عشرةَ سنة في اجتماعٍ عقده والدي نعمان وأخوه أبو شيرين، مع والدتي جودي وأختها أُمِّ شيرين. وقد انتهى ذلك الاجتماع بقرارِ سَفَرِ ماما وخالتي مع بابا وعمِّي إلى أميركا كي تلدانا هناك، فنأخذ أنا وشيرين الجنسيَّة الأميركيَّة.

عندما نَكْبر، ستساعدنا الجنسيَّة الأميركيَّة على الدراسة في جامعات أميركا بأقساطٍ مخفَّضة. ذلك كان حُلْم والديَّ رحمهما الله، والآن، بعد وفاتهما، صار حُلْمي أنا وفاءً لذكراهما، لا إعجابًا بأميركا تحديدًا، فأميركا أو غيرها سيَّان عندي. لقد اكتشفتُ منذ وقتٍ قريبٍ أنَّ والديَّ كانا وطني الوحيد، وبعد رحيلهما، بات يكفيني أن أعيشَ في أيِّ بلدٍ يكون فيه احتمالُ سقوطِ قذيفةٍ على رأسي يساوي صِفْرًا.

كانت شيرين ما تزال ترمقني بتلك النظرات الغاضِبة، فقلتُ لها: "الحقُّ عليكِ، أنتِ مَنِ انشغَلَ في أسبوع الامتحان بتصويرِ الفيديو الجديد ومونتاجه على اليوتيوب. قلتُ لكِ مئة مرَّة إنَّ هذا ليس وقتَ الفيديوهات ولا اليوتيوب، لكنَّكِ لم تُصغِ إليّ".

ارتمتْ شيرين على السرير إلى جانبي وقالت: "على ذِكر اليوتيوب... اسمعي: الفيديو الجديد هو عن التنويم المغناطيسيّ. أريد منكِ أن تساعديني فيه".

قمتُ من سريري واتَّجهتُ نحو مكتبي، وضغطتُ على زرِّ تشغيل الحاسوب، وقلتُ لها: "لا أستطيع. فأنا أيضًا يجب أن أضَعَ فيديو على قناةِ اليوتيوب اليوم، ويجب أن أكتُبَ فصلًا جديدًا من قصَّتي «جريمة في المصعد». متابعو قناتي ينتظرونه بشَوق، لأنَّني توقَّفتُ عند لحظةٍ حاسِمةٍ جدًّا في المرَّة الماضية".

وضعتُ أصابعي على أزرارِ الحاسوب، لكنَّ شيرين قفزَتْ من السرير، وسحَبَتني إلى أريكتنا التي عليها وسائد ذات خطوطٍ بلونِ الخردَل، وقالت:

"أرجوكِ...أرجوكِ، لا تكوني أنانيَّة. لستِ بحاجةٍ إلى مزيدٍ من المعجبين، فعدد معجبيكِ يفوق عددَ المعجبين على صفحتي بكثير. ساعديني، أرجوكِ...أنا ابنة خالتكِ المسكينة، وابنة عمِّك أيضًا. هذا أقلُّ ما يمكنكِ فعله لتكفِّري عن ذنبِ مجموعكِ الآثِم في الاختبار".

شيرين لا تستسلمُ البتَّة. نفختُ في وجهها نفخةً جعلتْ غرَّتها تطير عن جبينها، وسألتها: "وما المطلوب؟".

قبَّلَتْ خدِّي قُبلةً سريعة، ونفَضَتْ وسادةً مخمليَّةً كانت على الأريكة كي تنتفخَ قليلًا، ثمَّ شدَّتني من كتفي لأرميَ رأسي عليها، وقالت: "كلُّ ما عليك فعله هو أن تسترخي وتنظري إلى النُّواس فيما أُحرِّكه يمينًا وشمالًا".

تدلَّى من إصبعها شريطٌ في آخره قطعة معدنيَّة مُستديرة من فئة ٢٥ ليرة سوريَّة، ففهمتُ ما قصدَتْه بكلمةِ نُوَّاس.

شَبَكْتُ ذراعيَّ وقلتُ لها: "شيرين، أتدرين لماذا لا تحظى صفحتك بمعجَبين كثيرين؟ لأنَّكِ تخدعينهم؛ فأنتِ لا تعرفين شيئًا عن التنويمِ المغناطيسيّ".

قَرَّبَت شيرين الميداليَّة من عينيَّ وأجابتني بعناد: "بلى، أعرف. قرأتُ كلَّ شيءٍ عنه على الإنترنت، وشاهدتُ عدَّة فيديوهات. إنَّه سهلٌ جدًّا. سترين الآن!". وضَعتْ كفَّيها مطبَقتَين تحت ذقنها في حركةٍ ترجوني بها، وصارَتْ تُغنِّي لي الأغنية الأجنبيَّة "لا تخذليني" (Don't let me down).

قلتُ لها: "موافقة، بشرط ألَّا تُظهري وجهي في الفيديو".

أجابَتْ: "أعرف، صدِّقيني أعرف. لقد حفِظْتُ ذلك عن ظهْرِ قلب. سأضعُ الكاميرا خلف رأسك، لن يظهرَ وجهك، بل ذيلُ شعرك الكستنائيِّ الجميلِ الأنيقِ اللَّطيف. سيظهر وجهي فقط. اتَّفقنا؟".

استسلمتُ لطَلَبِها على مَضَض. أسرعَتْ شيرين وثبَّتَتْ جهازَ "الأيباد" خلفي على طاولةٍ صغيرةٍ بجانب الأريكة، وضغطَتْ على زرِّ التسجيل الأحمر، ثمَّ سحبَتْ كرسيَّ مكتبي المُتحرِّك حتَّى وصلَت به إلى الأريكة

حيث أستلقي، وجلسَتْ عليه وقالت: "هَيَّا استرخي بهدوء...تابعي حركةَ الميداليَّة بعينَيْكِ. سيخرُج التوتُّر الآن من أطرافِ أصابعكِ... ويغادر ببطءٍ من مسامات بشرتكِ، ومن أطراف أهدابكِ".

كان صوتها رتيبًا هادئًا. والغريب في الأمر أنَّني بدأتُ أشعرُ بالفعل كأنَّ التوتُّر يتبخَّر منِّي بالتدريج.

أكملتْ شيرين: "أجفانك الآن متثاقلة...أنتِ على وَشَكِ النوم بعمق".

هل يُعقل أنَّها تعلَّمتْ أصولَ التنويم المغناطيسيِّ من الإنترنت كما تزعم؟ فقد تسلَّل النعاسُ إلى جفنيَّ حقًّا وأطبَقتُهما. لم أشعرْ بسكونٍ كهذا منذ شهور.

وتابعتْ: "نايا...أنتِ الآن تمشين ببطءٍ في ممرٍّ طويل. يوجد في هذا الممرِّ أبوابٌ عليها لافتات. كلُّ لافتةٍ تحمل رقمَ سنةٍ من عمرك. أنتِ تقفين الآن أمام بابٍ مكتوبٍ عليه العدد ١٧، لأنَّ هذا هو عمرك الحاليّ، أليس كذلك؟ تراجَعي ببطءٍ عن ذلك الباب...خطوةً بعد خطوة...حتَّى تَصِلي إلى الباب الذي يسبقه. والآن...هل وصلتِ إليه؟ انظري...عليه العدد ١٦، وأنتِ تقفين عند عتبَته".

سمعتُ صوتَ مِزلاجٍ ينفتح، يليه صريرُ الباب، ثمَّ انفتَح أمامي الباب ١٦، وفي ثوانٍ معدودة وجدْتُ نفسي في بيتنا في حلب.

الأرض مغطَّاة بأكوامٍ من الحجارة، والجدران تنهار شيئًا فشيئًا...وماما تركض بجنونٍ نحو حافَة الشقَّة المهدومة، حيث الفراغ، وتصرخ بهلع: "نعمان...نعمان!". مدَدتُ ذراعيَّ لأمنعها، وصرختُ: "توقَّفي...توقَّفي!"، خبَّأتُ وجهي بين ذراعيَّ وصرَخْتُ من أعماقي.

شعرتُ بيدَيْن تهزَّان كتفي بقوَّة، وأصابعَ تُحرِّك ذقني.

جاءَني صوتُ شيرين مُضطربًا: "ماذا بكِ؟ نايا، ماذا بكِ؟ افتحي عينيكِ! افتحيهما!". فتحتُ عينيَّ ببطء، فرأيتُ الخطوط الخردَليَّة على الأريكة تُعيدني إلى الحاضر.

تمتمتُ مذهولة: "أنا في حلب...ذهبتُ إلى حلب".

ثمَّ التفتُّ إلى شيرين وقلتُ لها: "تنويمك أعادَني إلى شقَّتنا في حلب، يوم...يوم..."

ذلك اليوم! اليوم الذي دفنتُ ذكراه مع والديَّ تحت الركام. لكنَّ التنويمَ المغناطيسيَّ أعادَه إلى ذاكرتي فجأة، بلا مقدِّمات، وبكلِّ تفاصيله الدقيقة!

فرَكتْ شيرين كفَّيْها وقالت: "أرأيتِ؟ لم أكُنْ أكذب حين قلتُ لك إنَّني خبيرةٌ في التنويمِ المغناطيسيّ. لكنَّ خُطَّتي الأساسيَّة كانت أن آخُذكِ إلى الباب ١٥، يوم وقَعْنا في غرامِ ذلك الشابِّ الذي التقَطَ لنا صورَ التخرُّج في الصفِّ التاسع. تعالَي فلنُجرِّبْ مرَّة أخرى".

رميتُ عليها الوسادة بِغَيظٍ وقلتُ لها: "أهذا ما يشغُل بالك يا أنانيَّة؟ لقد أضعتُ وقتي بخزعبلاتك. هل في وُسعكِ أن تتركيني الآن أعود إلى قصَّتي؟".

لم أنتظرْ ردَّها، بل أسرَعْتُ إلى حاسوبي المحمول، أحاولُ طرْدَ مشاهد تلك اللَّحظات القاسية من بالي.

أوقفَتْ شيرين التصوير من الجهازِ اللَّوحيّ، ثمَّ مرَّرَت إصبعها على شاشته مرارًا، وهي تقول: "لا بأس، سأكتفي اليوم بهذا القدر. سأنشر الفيديو على قناتي، وسأحصد به عشرة آلاف إعجابٍ على الأقلّ".

أطفأتُ أنوارَ الغرفة علَّني أُهدِّئُ أعصابي. جلسَتْ شيرين إلى مكتبِها بينما ينعكس على وجهها ضَوءٌ أزرق بارد يتسلَّل من شاشةِ الجهازِ اللَّوحيّ. لا فائدة أن أرجوَها ألَّا تنشرَ الفيديو، فهي لن تتخلَّى عنه. شيرين لا تتنازلُ بسهولةٍ عمَّا تريد.

لم تمضِ سِوى دقائقَ قليلة حتَّى قفزَت من مقعدِها فجأةً وهتفَت: "نايا! نايا! لقد حصلتُ اليومَ على دفعةٍ من المتابعين الجدُد. تخيَّلي...تجاوز عددُ مُعجبي قناتي المئة ألف، قبل أن أنشرَ فيديو اليوم!".

ثمَّ أسرعَتْ إلى حاسوبي وضغطَتْ على لوحة المفاتيح، لأنَّها تريد الاطِّلاعَ على عدد المعجبين في قناتي. كان الرقم يتجاوز الخمس مئة ألف متابع.

# ٣

# ننصحُك بتغيير كلمةِ المرور!

أمسكْتُ الطبلة "بدِربكّة" عمِّي وبدأتُ أنقرُ عليها. لقد علَّمني بابا العزفَ عليها منذ كان شعري نافورتَين على رأسي. كانت طبلتُنا من فخَّار وكنَّا نحملها برفقٍ وعناية. لم يخطرْ لنا يومًا أن ينتهيَ بها الأمر تحت طنٍّ من الأنقاض. بدأتُ بإيقاعٍ بطيء. يساعدني الإيقاعُ الرتيبُ على التفكيرِ عندما أكتُب قصصَ الغموض.

قالت شيرين: "أرجوكِ ارحميني يا نايا! كيف سأُجري المونتاج وأنت تنقرين فوق رأسي؟"

تجاهلْتُ رجاءها. لا أستطيع التوقُّف حتَّى لو أردتُ ذلك. فدون هذه الطبلة لن أجدَ حلًّا لقصَّتي المستعصية. لقد وصلتُ في قصَّتي إلى طريقٍ مسدود، ولا بدَّ لي أن أجدَ مَخرجًا. أريد ابتكارَ طريقةٍ لإيصالِ القاتل إلى

داخل قُمرة المصعد، حيث تختبئ ناديا، بطلةُ روايتي. في الأفلام الأميركيَّة، توجَد عادة فتحة في سقفِ المصعد يدخل منها المجرمون، لكنْ بكلِّ أسف، لا وجودَ لمثل هذه الفتحة في مصاعد بلادنا.

ازدادَت وتيرةُ النقرِ بإيقاعٍ محلِّيٍّ مُتسارع. ومع تلك النقرات السريعة، دارَتِ المحرِّكات في دماغي.

أغمضتُ عينيَّ ثوانيَ ثمَّ تسلَّلَتِ ابتسامةٌ إلى شفتيّ. لقد بدأتْ كلماتُ قصَّتي تتدفَّق أمام عينيّ.

وضعتُ الطبلة من يديَّ وأسرعتُ إلى هاتفي وضغطتُ على تطبيقِ تسجيلِ الصوت وبدأت أُملي عليه تتمَّة المشهدِ الذي بدأته منذ ساعات:

"توقَّف المصعد بناديا فجأة! انطفأَتِ الأنوار وعمَّ الصمت! وعلى الرغم من كراهية ناديا للظَّلام، فقد كانت شاكرةً للمرَّة الأولى في حياتها على انقطاعِ التيَّارِ الكهربائيِّ المفاجِئ؛ إذ يوجَدُ قاتلٌ طليقٌ يجول بين طوابقِ هذا البناء اللَّعين، قاتلٌ يضع قناعَ "سكريم" المخيف (قناع الشبح) وفي يده خنجر. لذا، فإنَّ وجودها داخل القمرة، عالقةً في منتصف بئر المصعد، بدا لها خير حماية. حين فكَّرت بهذه الطريقة، تنفَّست باطمئنان. لكنَّ اطمئنانَها لم يدُمْ طويلًا، إذ لم تكدْ تمرُّ لحظاتٍ حتَّى أضاء المصعد من جديد، وعاد يتحرَّك. على لوحةِ الأزرار، راحَتِ الأرقامُ تظهر أمامها، واحدًا تلو الآخر: الرقم ٢، ثمَّ الرقم ١، ثمَّ G.

توقَّف المصعدُ وأعلنَت ثلاث نغماتٍ بطيئةٍ وصوله إلى الطابقِ الأرضيّ. سَمِعتْ ناديا دقَّات قلبها تخفق في أُذُنها. هل منَحت تلك اللَّحظات التي توقَّف فيها المصعد القاتل ما يكفي من الوقت كي يصلَ قبلها؟ حين انفتح الباب...كان هناك...ينتظرها! ذاك القاتل بقناعِ سكريم!".

أوقفْتُ التسجيلَ عند هذه اللَّحظة. وما دام اليوتيوب لا يقبل الملفَّات الصوتيَّة وحدها، اضطُرِرْتُ في كلِّ مرَّةٍ أنْ أُسجِّل مقطعَ القصَّة على هاتفي، ثمَّ أنقُل الملفَّ الصوتيَّ من هاتفي إلى الحاسوبِ المحمول وأُحوِّله إلى فيديو. وذلك بإضافةِ خلفيَّةٍ من الأضواءِ والألوانِ التي تتماوج خلف كلماتي. لم أكنْ أرغب في تصويرِ فيديو حقيقيٍّ لي وأنا أسرُد الرواية، فأنا بطبعي خجولة ولا أشعر بالراحة أمام الكاميرا. كما أنَّني لا أودُّ أنْ تظهرَ لقطاتٌ من غرفةِ شيرين في فيديوهاتي. فهذه الغرفة لا تُشْبِهني. تلك الأريكة الـمُخَطَّطة، مثلًا، تفتقر إلى علاماتِ التعَجُّب السوداء وعلامات الاستفهام البيضاء، كتلك التي انْتَقَيْتُها لأريكتي في حلب. وهنا، تتدَلَّى على الجدارِ خلفي صورُ نانسي عجرم وشاكيرا، لا صورة فيروز وأحلام مستغانمي، اللَّتَين تَلاشَتا مع الجدار هناك...الجدار والسقْف والبِناء!

اختَرْتُ هذه المرَّة خلفيَّةً للفيديو تشبه الموجات التي تظهر على جهازِ القلب في المستشفيات. وعندما انتهيتُ من العمل، ضغطتُ على زرِّ التحميل،

فبدأ ملفُّ الفيديو بالتحميل. وظهر مستطيلٌ أزرق رفيع يُبيِّن النسبة المئويَّة لِما قد جَرى تحميله.

كانت سرعة الإنترنت بطيئةً إلى درجةٍ مستفزَّة. مضَت دقائق طويلة قبل أن تظهرَ أخيرًا عبارة: "انتَهى التحميل". والآن، صار المشهد التاسع من رواية "جريمة في المصعد" في متناولِ جمهوري. بعد مرورِ دقيقةٍ واحدة، حدَّث متصفِّح "سفاري" الصفحة تلقائيًّا، فظَهَر عدد المشاهدات وقد تجاوز الستَّة آلاف.

لقد كان ستَّة آلاف شخصٍ ينتظرون هذا المشهد بفارغِ الصبر!

هل كان ستَّة آلاف شخص من جمهور أغاثا كريستي ينتظرون عند باب المطبعة نشْرَ كتابها؟

ارتسمَتِ ابتسامة على شفتيَّ رُغمًا منِّي. فأنا لا أُحِسُّ بالأكسجين يُضخُّ في رئتيَّ إلاَّ عندما أكتُب. قناتي على اليوتيوب هي عالمي الحقيقيّ، عالمي الافتراضيُّ الآمِن؛ عالمٌ لا تستطيع القذائف أن تهدِمَه. كلُّ مَنِ اشترك في قناتي يُحبِّني ويكتب لي تعليقاتٍ جميلة. في هذا العالم، لن يهتمَّ أحَدٌ بأنَّني بلا والدَين، ولا بيت، أو أنَّني من بلدٍ يأكل فيه الناس بعضهم بعضًا، أو أنَّ أبناءَ وطني صاروا طعامًا للأسماك في أثناء فرارهم من الحرب. ما يهمُّ هنا هو قصصي، حبكيَ الدراميُّ المُحكَم، والغموض، والتوتُّر، وأبطالي المثيرون.

سرحتُ للحظةٍ وأنا أتأمَّل في شاشةِ الحاسوب المحمول، لكنَّ رسالةً قفزَتْ فجأةً أعلى الصفحة وقطعَت شرودي.

نقرتُ عليها لأقرأ محتواها: "جرى توقيف حسابك على اليوتيوب بسبب تسجيل الدخول من جهازٍ مُختلف. إنْ كنت تعرف هذا الجهاز، يمكنك تجاهُل هذه الرسالة. أمَّا إذا لم يكنْ هذا الدخول من جهازٍ مألوف، فننصحك بتغيير كلمةِ المرور حالًا".

ماذا؟ جهازٌ مختلف؟ مَن هذا؟ قرصانٌ إلكترونيّ؟

ضغطتُ كالمجنونة على العبارة التي تخوِّلُني تغيير كلمة المرور. أدخلْتُ كلمةَ المرور القديمة بأصابعَ مُرتَجِفة: "Judi1981". وحالما انفتحَ مربَّع الكلمة الجديدة طبعتُ فيه دون تردُّد: "Judi2016". جودي هو اسم أُمِّي، والتاريخ الأوَّل هو سنة ميلادها. أمَّا التاريخ الذي كتبته الآن، فهو تاريخ وفاتها. لا أعلم لماذا خطَر لي هذا التاريخ تحديدًا في تلك اللَّحظة، ولكنْ لم يكُنْ هناك وقتٌ للتفكير. فلا وقت لأختار تاريخًا غيره الآن.

ضغطتُ على زرِّ "Enter" ثمَّ انتظرتُ ثوانٍ قليلة.

أخذَتْ صفحةُ اليوتيوب تظهر شيئًا فشيئًا، ببطءٍ شديد، ومع كلِّ ثانية، كان قلبي يضطرب أكثر فأكثر. صراحةً، من بين كلِّ مصاعب الحرب

في سوريا، أكاد لا أجد ما هو أشدُّ استفزازًا من بُطء الإنترنت. حدَّقتُ بالشاشة وأنا أردِّد "بسم الله، بسم الله..."، ثمَّ بعد دقائق، اكتملَتِ الشاشة وعادَت صفحتي على اليوتيوب بكلِّ تفاصيلها السابقة. أرخَيتُ ظهري لأتَّكِئَ على مسندِ المقعد وتنفَّستُ نفسًا طويلًا، وقلتُ: "شيرين...لن تصدقي ما حدث للتوّ".

رفعتْ شيرين رأسَها عن شاشة الجهازِ اللَّوحيِّ وسألتني: "ما الذي حدث؟ أخبريني".

أجبتها: "لقد حاول أحدهم سرقةَ قناتي على اليوتيوب، لكنَّني تمكَّنتُ من تغييرِ كلمة السرِّ في اللَّحظة المناسبة".

ضحكَتْ شيرين ضحكةً ساخِرة، وقالت: "وهل تظنِّين أنَّكِ البنتاغون الأميركيّ؟ نايا، أنتِ مجرَّد «يوتيوبر» عاديَّة، لا أكثر، تمامًا مثل كثيرين في الوطن العربيّ. لا أحد سيخطر في باله أن يسرقَ قناتك".

صحيح أنَّني لستُ البنتاغون الأميركيّ، لكنْ ربَّما أكون أغاثا كريستي هذا القرن. لقد أزعَجَني تعليق شيرين كثيرًا.

أجبتها: "كما تعلمين، أنا أتلقَّى مَبلغًا ماليًّا كلَّ شهرٍ من اليوتيوب، يعتمد على عدد المشاهدات، وهذا وحده يُغري كثيرين لسرقةِ قناتي".

ضحكتْ شيرين، وقالت: "أنا أحسدك بالفعل! لو كنتُ أكسب مثلك، لأنفقتُ المالَ على الاعتناء بشعري، ومكياجي، وأظفاري، واشتريتُ بنطال جينز وبلوزة بأكمام الجرس، وذهبتُ يوميًّا إلى الكافيه (المقهى) لأطلُب كابوتشينو وبراونيز. ولو فعلتُ ذلك، لكنتُ الفتاة الأكثر شعبيَّة في المدرسة، أو بالأحرى في حيِّ المالكي بأكمله. ليتني أكسبُ مثلك!"

نظرتُ إليها باستغراب. كانت تتحدَّثُ بكلِّ جِدِّية: شعرٌ، ومكياج، وأظفار، وكافيه؟ ماذا تعرفُ ابنة خالتي عن الحياة يا ترى؟ حتَّى عندما كنتُ أعيش حياةً طبيعيَّةً في حلب، لم تكنْ تلك الأشياء من اهتماماتي قطّ.

فجأة، دوَّى في أُذني صوتُ صريرِ باب، تبِعه صوت إغلاقٍ واضح. نظرتُ باتِّجاه باب غرفتنا، لكنَّه كان ما يزال مفتوحًا. كنتُ واثقةً جدًّا بشأن الصوت...لم أكنْ أتوهَّم! ولكن كيف ذلك؟ والغريب في الأمر هو أنَّ أبواب بيت خالتي لا تُصدِر أيَّ صوتٍ في العادة، فأيُّ صريرٍ هذا الذي اخترَق سكونَ رأسي؟ تذكَّرتُ التنويمَ المغناطيسيّ، فقد سمعتُ في أثنائه صريرًا مشابهًا. تُرى، أما زال عقلي عالقًا في ذلك الممرّ؟

قلتُ لشيرين: "ما كان ينبغي أن أسمحَ لكِ بتنويمي مغناطيسيًّا. يمكن أن تخرجَ هذه الأمورُ عن السيطرة أحيانًا".

لم تُجِبْني شيرين، بل صمتَت لثوانٍ ثمَّ قالت: "ما كلمةُ المرور الجديدة التي اختَرْتِها؟ خالتي جودي وتاريخ زواجها؟"

كنت على وَشَك أن أُصحِّحَ لها: "بل تاريخ وفاتها"، لكنَّ صوت ماما الدافئ همَس لي في زاويةٍ ما داخل رأسي، قائلًا: "هسس...لا تُخبِريها".

فتوقَّفتُ قليلًا، ثمَّ أجبتها: "سأحتفظ بها لنفسي".

لوَّحَتْ شيرين بذراعيها في الهواء كالمروَحة وكأنَّني في نظرها حالةٌ ميؤوسٌ منها، واكتفتْ بالقول: "كما تريدين".

لكن...من أين جاء صوتُ ماما؟ لم يبدُ كصوتٍ في داخلي، بل كأنَّها كانت معنا في الغرفة! تُرى، هل تأذَّيتُ بسبب تنويمِ شيرين؟ هل أيقظَ ذكرياتٍ مدفونةً في أعماقِ عقلي؟ والأهمّ: لماذا لم أُخبِرْ شيرين بكلمةِ المرور؟ لماذا استجبتُ لصوتِ ماما واخترتُ أن أحذَرَ منها؟

هل يُعقل أن تكونَ شيرين هي مَن حاولَ سَرِقةَ قناتي؟

# ٤

# شراب السُّعال

جلسْتُ إلى مائدةِ الغداء مع شيرين وعمِّي مصباح وخالتي نور. لقد أتلَفَ انقطاعُ التيَّارِ الكهربائيِّ المتكرِّر أكياسَ المؤونة التي كانت في الثلاجة، فلَمْ يَعُدْ لدينا هذا العام بازيلَّاء، ولا جبن الحلُّوم، ولا ورق عنب، ولا فول أخضر، ولا فاصولياء– لا شيء من الأطعمة التي اعْتَدْنا أن نجدَها في ثلَّاجاتِ السوريِّين كلَّ عام. وصِرْنا مُضطرِّين إلى الاكتفاء بخُضَرِ الشتاء غير المفضَّلة لدى الأغلبيَّة. مثلًا، كانت وجبةُ اليوم "منزَّلة الزهرة" (القرنبيط). ومع أنَّني تعلَّمتُ، بعد أشهرٍ طويلةٍ من الحِصارِ وشُحِّ الطعام في حلب، ألَّا أتذمَّرَ من أيِّ طعام، فإنَّ القرنبيط ما زال في نظري طعامًا مُزعِجًا من حيثُ الطعمُ والرائحة. يفترض أن تتكوَّنَ هذه الوجبةُ من قرنبيطٍ وكزبرة وثوم ولحم مفروم، غير أنَّ الغلاءَ الفاحِشَ للحوم في سنواتِ الحرب أدَّى إلى حذفِ هذا المُكوِّن من موائد معظم الناس، حتَّى في

بيت خالتي، مع أنَّنا نُعدُّ من "المُترَفين" في حيِّ المالكي، كما يحلو لمستخدمي وسائلِ التواصلِ الاجتماعيِّ أن يَصِفونا. سكبتُ بضع قطعٍ من القرنبيط تناثرَتْ عليها نقاطٌ من الكزبرة الخضراء.

قال عمِّي: "نايا، لاحظتُ اليوم أنَّ عددَ معجبي قناتك تجاوزوا الخمس مئة ألف! مبارَك!"

فقاطَعَتْه خالتي: "نايا، أخبريني، ماذا سيحصل الآن لناديا؟ هل يقتلها المجرم؟ هل اخترتِ نهايةً سوداء لقصَّتك؟"

يحاول عمِّي وخالتي أن يطَّلعا على قناتي دائمًا، علَّهما يجدان موضوعًا مشترَكًا نتحدَّث فيه.

وضعْتُ لقمةً في فمي وأجبْتُها: "لا أعلم"، ثمَّ انشغَلْتُ بصَحْني الذي لم تفتحْ رائحتُه شهيَّتي.

كان عمِّي وخالتي ينظران إليَّ وكأنَّهما لا يصدِّقانني.

أجبْتُهما كمَن يدافع عن نفسه: "صدِّقاني، لا أعلم بالضبط ماذا سيحصل! في بالي عدَّة خيارات، لكنِّني لم أقرِّر بعد".

قالت شيرين: "حصدَ فيديو التنويم المغناطيسيِّ مشاهداتٍ كثيرةً أيضًا، إنْ كان هذا يهمُّكما!"

أجاب عمِّي: "ما يهمُّنا أنْ نعرفَ خُطَّتك لرفْعِ درجاتك في اختبارِ «SAT»؛ لأنَّ العلامات التي حصَلْتِ عليها لنْ تؤهِّلكِ لدخول جامعة لوس أنجلس".

وأضافَت خالتي: "يلزم أن نسافرَ إلى بيروت لتُقدِّمي أنتِ ونايا امتحان «SAT» هناك. أنتِ تعرفين أنَّ أجرةَ السيَّارة، والفندق، والطعام، ورسم الامتحان- جميعها أمورٌ مُكلِّفةٌ جدًّا. سندفع ما لا يقلُّ عن ألف دولار. شيرين، باللهِ عليكِ، ابذلي جهدًا أكبر. لن نتمكَّنَ من تَكرارِ المحاولة إنْ حصلْتِ على مجموعٍ ضعيف".

لقد ازدادَتِ النفقاتُ كثيرًا على عمِّي المسكين، مع أنَّه صيدليٌّ مرموقٌ في الشام.

أضافَ عمِّي: "وزارة الصحَّة منعَتِ الصيادلة من رفْعِ أسعارِ الأدوية، لذا لم يطرأْ أيُّ تحسُّنٍ على دَخْلِنا، في حين أنَّ مصروفَنا في ازديادٍ مُستمرّ".

قالت شيرين متأفِّفة: "اللَّيرة السوريَّة فقدَتْ أغلب قيمتها مقارنةً بالدولار في أثناء الحرب، وزادَ سعرُ كلِّ شيء. فلماذا لا تسمح الوزارة لكَ برفْعِ سعر الدواء؟ ما هذا الظلم؟".

عندما كنَّا محاصرين في حلب، انقطعَتِ الأدوية من الصيدليَّات. أُصيبَتْ جارَتُنا، أمُّ عدنان، بسكتةٍ قلبيَّةٍ وماتت لأنَّها لم تجدْ حبَّةً تحت اللِّسان. أمَّا عطا، ابن البقَّال، فكان ينهار أرضًا أمام أعيُنِنا، لأنَّه توقَّف عن تناولِ دواء الصرَع.

الحمد لله أنَّ أسعار الأدوية لم ترتفعْ، وإنْ أحزَنَني أنَّ دخْلَ عمِّي لم يواكبْ موجةَ الغلاء، لكنَّ ارتفاعَ سعر الدواء له عواقبُ خَطِرة. لمْ أُعَلِّق على ما قالَتْه شيرين، لأنَّه ببساطةٍ لنْ يهمَّها.

تناوَلَ عمِّي قطعةً من رغيفِ الخبز، وقال: "شيرين، للمرَّة الألف أطلُب أنْ تتركي الفيديوهات وقناتكِ، وتُركِّزي في دراستكِ، هل تسمعين؟".

أجابته شيرين: "لماذا لا تمنع نايا عن قناتها أيضًا؟ فهل على رأسِ الستِّ نايا ريشةٌ دائمًا؟"

ثمَّ سَحَبت شيرين المملحة من يدي، وأخذَتْ ترُشُّ منها بعصبيَّة فوق صحنها.

أجابها عمِّي: "عندما تحصلين في الامتحان على ٢٣٥٠ درجة من أصل ٢٤٠٠، كما فعلَت نايا، فلن أمنعكِ من العمل على قناتك، أعِدُك بذلك".

وضعتْ شيرين يدها على خدِّها، وقالت: "أساسًا، كيف أنشغل بقناتي وأنا لم أجِدْ حتَّى الآن فكرةً للفيديو المقبِل؟ الفكرة الوحيدة التي خطرتْ لي هي تنفيذُ مَقلبٍ مع نايا، مثل أن أضعَ دواءَ السُّعالِ المنوِّم في شرابها، ثمَّ أُصوِّرها وهي نائمةٌ تَشخُر".

ترَكَ عمِّي قطعةَ الخبز من يده، وقال: "دايمة...الحمد لله"، ثمَّ قامَ وتَرَكَ المطبخ.

بالمناسبة، كان بابا أيضًا يقول "دايمة...الحمد لله" حين يُنْهي طعامَه.

قالت خالتي لشيرين: "تركَ أبوكِ الطعام بسببك، حتَّى لا يصرخ عليكِ. لماذا تُصرِّين دائمًا على التصرُّف بسخافة؟"

ضرَبتْ شيرين كفَّيها على الطاولة وقالت بانفعال: "لأنِّي لا أريد أن أدرُس، ولا تهمُّني العلامات العالية في ذلك الامتحان، ولا أرغب في الذهابِ إلى جامعة لوس أنجلس! لا أريد الذهاب إلى أميركا أساسًا. كم مرَّة عليَّ أنْ أقول لكما ذلك؟ خُطَّتي الوحيدة هي الالتحاقُ بالجامعةِ الأميركيَّة في بيروت العام المقبِل، وهذا ما اتَّفقتُ عليه مع كلِّ صديقاتي. اذهبوا أنتم إلى أميركا! إنَّها ليست ضمن برنامجي إطلاقًا!"، ثمَّ قامَتْ هي الأُخرى عن الطاولة.

عمِّي وخالتي يطْمَحان إلى الهجرة، مثل أغلب السوريِّين. فمنذ اندلاع الحرب، هاجر معظم معارفهما. باعَ الميسورون منهم جميعَ ممتلكاتهم هنا، وأسَّسوا حياةً جديدةً في البلدان القليلة التي استقبلَتِ السوريِّين. حتَّى غير الميسورين، باعوا ما تيَسَّر لهم ليحجزوا مقاعدَ لهم ولأولادهم على مَتْنِ قواربِ الموت؛ تلك العوَّامات المطاطيَّة المنفوخة التي تزدحم باليائسين الذين اختاروا مواجهةَ خطرِ البحر، أملًا بالنجاةِ إلى مكانٍ ما في أوروبَّا، يُبعِد أبناءهم عن الجبهات المتحارِبة. لكنَّ خُطَّة هجرةِ خالتي وعمِّي كانت مختلفة؛ فقد رغبا في إرسال شيرين إلى أميركا لتتابعَ دراستها هناك مجَّانًا، ثمَّ

ينتظران حتَّى تبلغ الحادية والعشرين من عمرها لتُقدِّم لهما طلبَ الإقامة الأميركيَّة، وعندئذٍ يلحقان بها. كانت خُطَّةً ذكيَّةً تُبقي العائلة مجتمعة، لكنَّ شيرين البلهاء لا تكترث بذلك!

كم أتمنَّى لو كان لي تَرَفُ الاختيار مثلها! كنتُ، دون تردُّد، سأختار البقاء إلى جانب والديّ، ولو في قبرٍ ضيِّق، بين قبرَيهما.

أطلقَتْ خالتي تنهيدةً طويلةً من أعماقها، ثمَّ لمحَتْ صحني، فظهر بعض اللِّين في تعابير وجهها.

سألتني: "لماذا بالكاد أكلتِ؟ هل يشغل أمرٌ بالَكِ أيضًا؟"

قمتُ عن الطاولة، وسَكبتُ ما بقيَ في صحني في الوعاء الذي نضع فيه فتاتَ الطعام لتأكلَ منه الحَماماتُ على الشرفة في آخِرِ النهار. ثمَّ أجبْتُها بهدوء: "لا أحبُّ القرنبيط!".

فتحتُ البرَّاد أبحثُ عن شيءٍ آكله. تجوَّلَتْ عيناي بين الرفوف، لكنَّ عقلي ارتحلَ إلى مكانٍ آخر. هل كانت شيرين تمزح حين تحدَّثت بشأن ذلك المقلَب؟ هل يُعقل أن تستعملَ حقًّا دواءَ السعالِ كي تنوِّمني؟

رنَّ البرَّادُ محتجًّا لأنَّني فتحْتُ بابَه مدَّةً طويلة، فأغلقْتُه. وحالما فعلْتُ ذلك انطفأ صفُّ المصابيحِ الخضراء الصغيرة في جهازِ التكييف،

وأصدرَ رنَّةً طويلة، ثمَّ أطبَقَ شفراته الدافئة. لطالما فعل ذلك كلَّما انقطعَ التيَّارُ الكهربائيّ.

قالت خالتي: "أمامنا أربع ساعاتٍ دون كهرباء. سيفقد المنزلُ حرارته سريعًا الآن، ضَعي شيئًا على كتفيكِ".

لطالما كانت ماما تقول لي العبارة نفسها: "ضَعي شيئًا على كتفيكِ"، لكنَّها رحلَت...وتركَت أكتافي بارِدة.

صرخَتْ شيرين في غرفتها: "يا إلهي! نسيتُ أن أشحنَ هاتفي الغبيّ. أكره هذه الحياة الغبيَّة!"

تذكَّرتُ واجبَ الرياضيَّات الذي لمْ أحلَّه بعد، فجلستُ في سريري تحت اللِّحاف لأحاولَ حلَّه هناك. يوجَدُ أمرٌ في ذلك اللِّحاف العزيز يجعَلُني أشعرُ بأنَّني أُدير معظمَ حياتي من تحته: أكتُبُ، وأقرأ، وأبتكرُ الحَبْك الدراميَّ لقصصي. حاولتُ أن أركِّز على المعادلات والأرقام، لكنَّ صوتًا داخل رأسي ظلَّ يُلحُّ عليَّ بالسؤال: هل تنوي شيرين أن تنوِّمني بالفعل؟

## ٥

# ونقاطٌ كثيرة

عندما دَخَلتُ من بوَّابةِ المدرسة مع شيرين في اليوم التالي، اقتربَت منها "الشلَّة"؛ سامية والتوأمان هاني وهانية. كانت سامية صديقةَ شيرين المفضَّلة، وقد بدَت عيناها باكيتَين.

همَسَتْ سامية في أُذُن شيرين، فالتفَتَت نحوي وأعطتني حقيبتها، ثمَّ قالت: "نايا، هل يمكن أن تسبقيني إلى الصفّ؟ سامية لديها موضوعٌ خاصٌّ تودُّ إخباري به. سألحقُ بكِ بعد دقائق".

كان أصحاب شيرين ما يزالون لم يعتادوا وجودي، ولا يبوحون بأسرارهم أمامي، مع أنَّني أرتاد هذه المدرسة منذ أربعة شهور. وأنا أيضا لم أعتَدْهم بعد، ولا أبوح بأسراري لهم. في مدرستي السابقة في حلب، كنتُ أعرف الجميع وكانوا يعرفونني أيضًا. أمَّا هنا، فما أزال أُمضي معظم أوقاتي وَحدي.

ولكنَّ ذلك لا يُزعِجُني كثيرًا؛ فقد أصبحَتْ صداقاتي الحقيقيَّة مع قُرَّائي، أُكِنُّ لهم المحبَّة، ويبادلونني إيَّاها.

عبَرْتُ الباحةَ وأنا أحمِلُ حقيبتي وحقيبة شيرين، ثمَّ دخلْتُ المبنى. صعدتُ الدرجَ نحو صفِّي. كانت الدرجة الثالثة تنقصها قطعة، أمَّا الدرجة التاسعة فكانت مكسورة. تفقَّدَتْ أناملي تَقَشُّر طبقةِ الدهان على مسنَد الدرج. بَعْدَ درجتَين يبدأ ممرُّ الصفوف. كانت بلاطاتُ الممرِّ بيضاء اللون قبل أن تُلطِّخها أحذيةُ الطلبة بسوادٍ لا يَزول، وكانت الجدرانُ ملآنةً بالشتائم ورسائلِ الحبّ، وبرسومٍ نحتَها الطلبة بمفاتيحهم.

يعود هذا المبنى القديم إلى مدرسةٍ حكوميَّةٍ كان طلَبَتُها يداومون فيها من الساعة الثامنة صباحًا حتَّى الثانية عشرة ظهرًا. وقد استأجرَتْ إدارة مدرستنا، "مدرسة المبادرين"، هذا المبنى من الحكومة عند بداية الحرب لنداومَ فيه بين الساعة الثانية عشرة ظهرًا والخامسة مساء. كانت مباني "مدرسة المبادرين" الأساسيَّة في الضواحي مبانيَ فاخرةً ذات ساحاتٍ واسِعةٍ وملاعبَ ومطاعمَ ومسارِح. ولكنْ مع بداية الحرب، انسحبَتْ كلُّ المدارس الخاصَّة من الضواحي لأنَّها أصبحَت غير آمِنة، واستأجرَتْ لها مبانيَ صغيرةً في مركَزِ دمشق، لتحشرَ فيها مَن لم يهاجرْ من طلَبَتِها.

ازدادَتْ أهمِّيَّة المدارس الخاصَّة إبَّان الحرب على الرغم من أقساطها الباهِظة؛ إذْ يُفتَرض أن تُحضِّرَ طلَبَتَها لفحوصاتِ القبول في الجامعات العالميَّة. فحالما يحصل هؤلاء الطلبة على قبولٍ من جامعةٍ أجنبيَّة، يضمن لهم تأشيرةً تُخرِجُهُم من الحدود، حتَّى يرتحلوا جميعًا.

صدَحَ أذانُ الظُّهر من المسجد القريب، فانسابتْ كلماته إلى الغرفة من خلال زجاجِ النوافذ المكسورة.

أخذتُ أردِّدُ معه: "الله أكبر الله أكبر..."، حتَّى وصلتُ إلى صفِّي الذي كان ما يزال فارِغًا. جلستُ على مقعدي وحدي، وبدأتُ أُدَندن أغنيَّةً علَّمتني إيَّاها أُمِّي كانت قد تعلَّمَتها في طفولتها: "الدنيا برد برد...أنا أجمَد من بردي"، فخرَج بخارُ الماء من فمي، وخبَّأتُ أصابعي داخل أكمامي، وجلستُ أنتظر. دقَّ الجرس، فدخل الجميع، ثمَّ دخل الأستاذ خلفَهم. أخذَت شيرين مكانها إلى جانب سامية. بدأتْ حصَّةُ الرياضيَّات وطلَب إليَّ الأستاذُ أن أحلَّ المعادلة على اللَّوح.

أمسكتُ بالطبشورة ورحتُ أتأمَّل حروفَ المعادلةِ وأرقامها. هل ترقصُ حروفُ المعادلةِ وتتوهَّج؟ فرَكتُ عينيَّ ونظرتُ مرَّة أُخرى. فبدأتُ أرى أمامي خطوطًا تنحني، ودوائر، ومستقيمات، ونقاطًا كثيرة...! ماذا يحدُث معي؟ نظرتُ إلى الأستاذ، فبدأتْ صورتُه هي الأُخرى تتماوَج.

ثمَّ بدأتْ أجزاء الصفِّ تتلاشى أمامي شيئًا فشيئًا. نظرتُ إلى بابِ الصفِّ وخَطَوتُ باتِّجاهه كي أخرُجَ من هذا الصفِّ المجنون. كانت ضَحِكاتُ الطلَبَةِ تلاحقني. سمعتُ صوتَ الأستاذ يقول أمرًا، ولكنَّني لم أفهَمِ الكلمات. بعد ذلك، عبَرْتُ الممرَّ، ونزلْتُ الدرجَ مُسرِعةً حتَّى وصلتُ إلى الباحة...أعماني ضَوءُ النهار فغطَّيتُ عينيَّ.

جلستُ على مقعدٍ حجريّ، أحاول أن أفهمَ ماذا حدَث معي. ماذا كانت تلك الأشكالُ التي رأيتُها على اللَّوح؟ خطَر لي أنَّني نمتُ نومًا قلِقًا ليلة أمس. فطوال اللَّيل، كانت عبارة شيرين عن دواءِ السُّعالِ تتكرَّر في أُذُني حتَّى طرَدَتِ النومَ من عينيَّ. وفي ليلة أوَّل أمس، لم أنَمْ أيضًا؛ إذ كنت أفكِّر في قصَّةِ "جريمة المصعد". شعرتُ بتعبٍ شديد...لعلَّه السببُ في تلاشي صورةِ الأستاذ والصفّ؟ أو ربَّما للتنويمِ المغناطيسيِّ علاقةٌ بالأمر؟ غالبًا ما يحذِّرون من ممارسةِ التنويمِ المغناطيسيِّ على يَد غير المُختصِّين، وشيرين ليست مُختصَّة...لماذا سمحتُ لها بتنويمي؟ هل تسبَّبتْ لي بأذيَّةٍ في الدماغ؟ شعرتُ بنَقَراتٍ على كتفي، فتَحتُ عينيَّ، وإذا بها أمامي تبتسم تلك الابتسامة العريضة، كما تفعل دائمًا.

سألَتني: "هل أنتِ بخير؟"

نظرْتُ إليها نظرةً تُشبِه مَن نسيَ الكلام. مدَّت يدَها لتُمسِكَ بيدي، ولكنَّ شرارةً قويَّةً خرجَتْ من احتكاك الصوف في ملابسنا، فأرعَبَتْنا. أبعدَتْ يدَها عن يدي، ثمَّ أخرجَتْ من جيب معطفها زجاجةَ عصيرِ مانجو، وقالت لي: "أنتِ لم تفطري صباح اليوم. ربَّما هبطَتْ نسبةُ السكَّرِ في دَمِك. اشرَبي هذا العصير".

فتَحَتْها وناوَلَتْني إيَّاها. لم أسمعْ، عند فتْح غطاء الزجاجة، تلك "التكَّة" التي نسمعها عادةً عند فتْحِ زجاجاتِ الشراب الجديدة. هل وضعَتْ شيئًا فيها؟ دواءَ السعال؟ أو مادَّة مليِّنة تسبِّب الإسهال؟ جلَسَتْ إلى جانبي على الكرسيّ، وقالت: "نايا، اتَّصلتُ بماما لتأتيَ وتأخذَك إلى البيت. كلُّ شيءٍ سيكون على ما يرام. لا تقلقي". ثمَّ عانقَتْ كتفيَّ بذراعها، ووضعَت خدَّها على خدِّي. بدَت لي صادقةً ومُحبَّةً بالفعل. شربتُ زجاجةَ العصير. يجب ألَّا أشكَّ فيها بتاتًا.